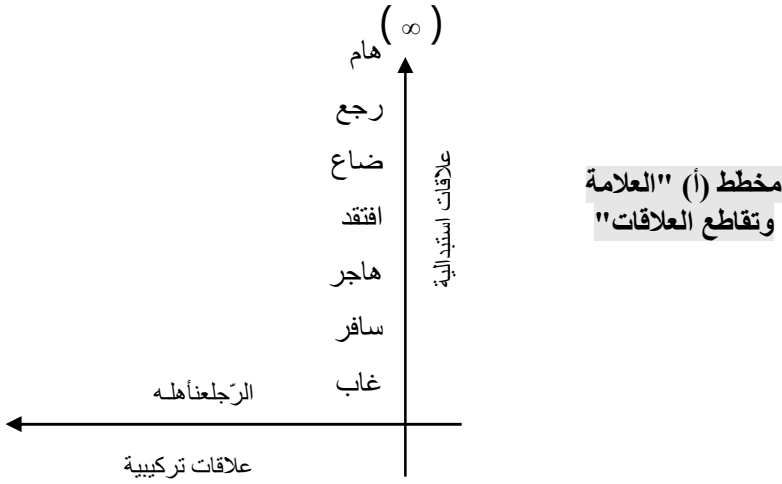


العلامة اللسانية وجدلية الحضور والغياب

د. عبدالقادر جلال

جامعة سيدي بلعباس

كعادته في بناء بحثه الشهير "دروس في الألسنية العامة" استطاع «دو سوسير - في ظلّ اهتدائه إلى ذلك الفارق بين العلامة في حالتها السلبية - المنعزلة وبينها وهي وحدة دالة في نظام: أن ينتبه إلى المحورين الأساسيين اللذين يقوم عليهما مبدأ العلاقة بين العلامات. وهما محور العلاقات التركيبية R.Syntigmatiques ومحور العلاقات الاستبدالية R. Paradigmatiques»¹. فلن يكون للعلامة قيمة وفائض معنى إلا إذا اختلفت عن غيرها. يقول "دو سوسير" وفي الخطاب، تقيم الكلمات ضمن تعاقدها فيما بينها، علاقات جينية على صفة اللغة الخطية تلك التي تستثني لفظ عنصرين في آن، وهذان العنصران إنما يقع الواحد منهما إلى جانب الآخر ضمن السلسلة الكلامية ويمكن تسمية الأنساق التي يكون المدى سندا لها تراكيب»². أما الكلمات خارج الخطاب فتتسم - يقول سوسير - «بشيء مشترك، وتترابط في الذاكرة مشكلة مجموعة تسودها علاقات مختلفة»³ خاضعة لمنطق الاستبدال. إن أهمية هذين المحورين تكمن في وصف الطريقة الإجرائية التي يعمل بها نظام اللغة، وذلك عن طريق اختلاف وتضاد وتجانس العلامات. «فكلمة العلم تتقابل مع كلمات أخرى مثل: التعلم والمعرفة والدراية .. (في سياق الترادف). ومع كلمات مثل: الجهل والحمق والغباء (في سياق التضاد). ومع كلمة الحلم مثلا (في سياق التجانس). وهكذا ومن وحي المقابلة بين كلمة العلم وهذه الكلمات التي تشبهها وتختلف معها في الوقت ذاته. تستمد كلمة العلم قيمتها الدلالية»⁴. وقد يمتد الاستبدال - يواصل الباحث - إلى مستوى الحروف. فالحرف "س" في "سلم"، و"ح" في "حلم" و"ع" في "علم"⁵. أما العلاقات التركيبية فإن أمرها خاضع لخطية اللغة ونظامها «ذلك أن بين كل حرف وحرف علاقة تركيبية، كما بين "ع" و"ل" في العلم، وبين كل كلمة وكلمة علاقة تركيبية»⁶.



يقول "دو سوسير" «إنَّ العلاقة التركيبية هي حضورية، وتقوم على عبارتين أو أكثر موجودتين في سلسلة موجودة بقوة الفعل»⁷. وبالتالي تكون العلاقة الاستبدالية - منطقياً - ذات طبيعة غيائية.

إنَّ خطية اللغة تفترض وجود كلمة سابقة وأخرى لاحقة. فعندما أقرأ الجملة السابقة (أنظر المخطط "أ") "غاب الرجل عن أهله". فإنَّها - تركيبياً - تكون ملأى لأنَّها معناها حاضر (محدّد). وفي المقابل عندما أبحث عن الأجزاء التي تتقاطع مع كلّ كلمة في الجملة، تتولّد لدي مجموعة من المعاني الغائبة (الناقصة) التي ليست موجودة في الجملة الأمّ. وما دامت غير محدّدة فإنَّها تكون فارغة. وبالتالي «فإنَّ الغياب يوحد بين الأجزاء والمعاني التي لا تتجسّد في النص الظاهر .. ومنها تسمح العلاقة الترابطية» (*) بتوليد المعاني التي تتجسّد في الفجوات والثغرات، والتي يمكن أن نطلق عليها "الواحد المتعدّد"⁸.

إنَّ النص كنسق لغوي مكتمل وقام، تنتجه العلاقة التركيبية. أمّا العلاقة الاستبدالية فتنتج "الغياب أو الفراغ أو الإرجاء" الذي يُعدّ «خلفية لغوية باطنية تستمد ثروتها من النسق»⁹ نفسه، ومن اعتباطية العلاقة بين الدالّ والمدلول ؛ حيث لا قدرة للعلامة على تثبيت معنى دائم ومستقر للدال، إلّا ذلك الذي تحفظه - على الأقل - المعاجم والقواميس. ولهذا تتغير وتتعدّد الدلالة، بتغير العلامة واستبدالها بأخرى، فقولنا: غاب الرجل عن أهله، غير قولنا: هجر الرجل أهله. فالغياب هو ما «يميّز العلامة نظراً لطابعها الاعتيادي»¹⁰، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال، تغير الكثير من دلالات بعض العلامات اللغوية من لغة إلى أخرى. وحتى في اللغة نفسها لا يمكن أن يكون الدال "حصان" مطابقاً

لصورة الحصان كحيوان يختلف في تحديده من شخص إلى آخر. وعدم المطابقة هذه هي التي تخلق الفجوة بين الدال والمدلول.

لقد عرفت اللسانيات بمدارسها المختلفة والتي اهتمت بأراء "دي سوسير" اتفاقاً واختلافاً، خاصة فيما يتعلق بطبيعة العلاقة التي تربط العلامات. ومن هذه المدارس:

1.1- حلقة كوبنهاجن (♦) :

تري هذه المدرسة أسبقية العلاقات الاستبدالية على التركيبية، بل «إن يامسليف يذهب إلى حد القول بأن تحليل اللغة بدءاً من العلاقة المركبية محفوف بالأخطاء، ولهذا يُعطي الأولوية لمقولة الغياب لأنها هي التي تجعل من الحضور علاقة ممكنة. فبدون الغياب لا يمكن تصوّر وجود لغة بالأساس»¹¹. لأن الاختلاف وفق مبدأ الاستبدال يوفر للغة إمكانية التنازل، بينما يجعلها مبدأ التركيب ثابتة وغير متغيرة حتى لا نقول عقيمة.

2.1- حلقة براغ (♦) :

تقول هذه المدرسة «بأسبقية المحور الترابطي على المحور المركبي»¹². أي بأسبقية الغياب على الحضور. والملاحظ أنه فيما دعا "دي سوسير" إلى الجمع بين العلاقتين، دعت المدرستان إلى أسبقية علاقة الاستبدال على التركيب، حيث اعتبرت الحلقتان نموذجاً لتحليل الوظيفي للغة خاصة مع «تنسيير ويامسليف .. اللذان تمكنا من وضع إجراءات تحليلية تستهدف الكشف عن بنية الجملة بكيفية تبدوا أدق وأرقى من التوزيعيين أنفسهم، باعتبارها تتجاوز الرؤية التقطيعية السطحية للوحدات إلى بنيتها الداخلية المكوّنة من العلاقات غير الظاهرة»¹³. أي المسكوت عنها أو الغائبة.

3.1- المدرسة التوزيعية (♦) :

استطاعت هذه المدرسة أن تستفيد من أبحاث اللسانيين الأوروبيين، وتفردهم عنهم في الوقت نفسه، حيث سعت «إلى وصف الوحدات اللسانية وتحديدتها في لسان ما من أجل تصنيعها في شكل أقسام وفئات .. ويتميز هذا الإجراء التحليلي .. أنه لا يكتفي بالوقوف على العلاقات القائمة بين وحدات الجملة الظاهرة فحسب بل يسعى - عن طريق تطبيق مفهوم العلاقات الاستبدالية- إلى معرفة جميع العلاقات الممكنة بين الوحدات الظاهرة والوحدات (غير الظاهرة)»¹⁴، أي بين الحاضرة والغائبة.

وبالتالي فإن التوزيعية وهي ترى أسبقية العلاقة التركيبية على الاستبدالية، فإنها تنطلق من مرفولوجيا الكلمة وليس من وظيفتها النحوية ؛ أي أنها لا تبحث في تقاطع العلامة بقدر ما تبحث في تكوينها. ولهذا نجد اختلافاً في الطرح بين المدرسة الأوروبية ..

والمدرسة الأمريكية، حيث «تفضّل المدرسة الأوروبية الأنظمة الترابطية على الأنظمة المركبية بخلاف المدرسة الأمريكية، وهذا ما سمح للتفكير اللساني الأوروبي باقتحام المجالات المعرفية الأخرى التي لجأت إلى اللسانيات للتخلّص من مأزقها»¹⁵.

حتّى أنّ تحامل "ستانلي فيش" (S. Fisch)، وهو ناقد أمريكي من رواد نظرية استجابة القارئ، على الناقد الألماني (أوروبي) "فولفغانغ إيزر" (W. Iser) فيما يتعلّق بمسألة الفراغ، ووصفه لهذا المصطلح "الإيزري" بأنّه فضفاض وغير إجرائي، قد يُحمل على وجه هذا الاختلاف بين المدرستين كما سنرى.

لقد حاولت الدراسات البنيوية الاستفادة من المباحث اللسانية، التي نشأت مع "دو سوسير"، خاصة في مجال العلاقتين السابقتين. وقد تجلّى ذلك بوضوح في أبحاث علم النفس البنيوي. حيث استطاع "جاك لاكان" (J. Lacan) أن يوظف ثنائية الدال والمدلول لتفسير الظواهر النفسية ذات الطبيعة المرضية. ففي مقدور الدال حمل بعض ترددات اللاوعي في شكل حلم أو زلّة لسان.

حين «يرى» "دو سوسير" أنّه لا وجود للدال إلا بوجود المدلول (مثل وجهي الورقة الواحدة) يؤكّد "لاكان" على استقلالية كلّ منهما بالنسبة للآخر¹⁶. ذلك أنّ بداية وعي الطفل بالاختلاف بين الجنسين يبدأ متزامنا مع اللغة. ويمكن رؤية ذلك - حسب لاكان - في نموذج "المرأة" فحين يتأمل الطفل نفسه في المرأة لأوّل مرة، يجد اتحاداً (تطابقاً) بين نفسه (الدال) وصورته على المرأة (المدلول)، وهذا ما قال به "دو سوسير"، واستثمره "لاكان" ببراعة حين وصف هذا التطابق بأنّه «عالم من الامتلاء Pleinitude، دون نقص .. يجد "الدال" (الطفل) "اكتمالاً"، هوية مكتملة لا تشوبها شائبة .. لم تنفتح فجوة، بعد، بين الدال والمدلول، بين الذات والعالم، والطفل حتى الآن هائن»¹⁷.

ومع تعلّمه للغة، يدرك الطفل معنى العلامة في اختلافها عن غيرها «كما يتعلّم أنّ علامة ما تفرض، سلفاً، غياب الموضوع الذي تعنيه»¹⁸. مثلما تقول في العادة: إنّ تلبّد السماء هو علامة على وشوك سقوط المطر، فالتلبّد حاضراً، لكن المطر الوشيك الهطول غائب. ولهذا «فإنّ الشيء الحاضر هو الذي يمثل الغائب .. حيث لا يكون الصدى في الحقيقة، إلاّ صورة الصوت الغائب»¹⁹، وحتى حالة حضوره يمكن أن تكون ناقصة مقارنة بعلامة أخرى وهكذا ..

وفي الوقت الذي يتعلّم الطفل دلالة الكلمة، يُدرك موقعه في أسرته باعتباره مختلفاً عن غيره من الدّوات. وبدخول الأب يفقد هذا الطفل أوّل عالم ممثّل هو "جسد الأم" المحرم عليه

الآن «لقد تمّ نفيه من هذا الامتلاك "الممتلئ"، الخيالي إلى عالم اللغة "الفراغ"»²⁰. حيث تصدر كلّ الرغبات فيه من نقص وغياب الشيء الواقعي الذي تشير إليه العلامة. وهنا تنفتح الفجوة بين الدال والمدلول ومهما جهد الإنسان في ملئها وردمها، فلن يستطيع. وكلّ ما يبدو لنا امتلاءً

هو محض مجاز واستعارة وكنائية، قد تكون الأحلام إحدى مظاهرها، ذلك أنّ «اللغة لا تقول الأشياء بحرفيتها، أو شكلها الساذج الغُفل، لأنّ المجاز يقيم الفجوة بين الكلمات والأشياء»²¹ نظراً لامتلاكها - أي اللغة - خاصية التكثيف.

لقد كانت النظرية السردية هي الأخرى، سبّاقة إلى توظيف مضمون محوري الاستبدال والتركيب، حيث يرى "تزفيطان تودوروف" (T. Todorov) بأنّ «العلاقات الغيائية هي علاقات معنًى وترميز، فهذا الدال "يدلّ" على ذلك المدلول، وهذا الحدث يستدعي حدثاً آخر، وهذا الفصل الروائي يرمز إلى فكرة ما، وذاك الفصل يصوّر نفسية ما. أمّا العلاقات الحضورية فهي علاقات تشكيل وبناء»²². والملاحظ أنه لا يفضل علاقة عن أخرى، بقدر ما يدع إلى تكاملهما.

وفي الاتجاه نفسه نجد "جيرار جنيت" (G. Genette) يصرح، لكن بصوت المتمرس والمنظر في آن واحد «إنّ الحكاية تقول دائماً أقلّ مما تعلم، ولكنّها تطلع غالباً على أكثر مما تقول .. فعندما نقرأ [يقول جنيت] "شعرٌ بعرقٍ باردٍ ينضجُ من ظهريّ" نترجمه نحن دون تردّد كان خائفاً»²³. وعليه يصبح البحث عن المعنى في الحكاية تفرض نفسها علينا، فنحن - يواصل جنيت - «لا نفلت من ضغط المدلول، لأنّ الكون الدلائلي يخشى الفراغ»²⁴. فالتأويل يلاحق النصّ للمثء، لا لاستهلاكه. لأنّه - ببساطة - يعتبره رسالة ترتعش نقصاناً، وليس ظرفاً يُغلق ويُختم.

وفي الأخير، قد يعترض من يقول: إنكم تخلطون بين مفهوم "الفراغ" ومفهوم "الغياب". وقد يجد سندا لاعتراضه في حديث أحد الباحثين حين يقول: «قد تبدو المسافة بين ثنائية الحضور والغياب والمراوغة أو الفجوة مسافة قصيرة أولاً وجود لها في واقع الأمر .. وهذا هو استنتاج عام يغفر لذلك القارئ استخدام مصطلح منهما مكان الآخر. أمّا الحداثي الذي يدعي في احتكار المعرفة الحداثيّة فإنّ الخلط جريمة لا تغفر لأنّ ثنائية الحضور والغياب كما استخدمها "دريدا تختلف عن مفهوم "رومان إنجاردن" (Roman Ingarden) (1896-1970) .. [عن] المراوغة والفجوة والفراغ»²⁵ ربّما يبدو الأمر كذلك، غير أنّ تأكيده - بالنسبة إلينا - لن يتمّ إلّا من خلال المبحث الثاني من هذا الفصل، وهو:

الإحالات:

1. الطيّب دبّه: مبادئ اللسانيات البنيوية، دار القصبه للنشر، الجزائر، 2001م، ص89.
2. فرديناند دي سوسير: محاضرات في الألسنية العامة، تر: يوسف غازي ومجيد النصر، مؤسسة الجزائر للطباعة، الجزائر، ماي1986م، ص149.
3. المصدر نفسه، ص149.
4. الطيّب دبّه: مبادئ اللسانيات البنيوية، ص90.
5. يُنظر المصدر نفسه، ص90.
6. المصدر نفسه، ص90.
7. فردناند دي سوسير: محاضرات في الألسنية العامة، ص150.
- ❖ العلاقة الترابطية هي نفسها الاستبدالية وتُسمّى كذلك العمودية.
8. أحمد يوسف: شعرية الغياب وجمالية الفراغ الباني، ص110- 111.
9. المصدر نفسه، ص111.
10. فريد الزاهي: النص والجسد والتأويل، إفريقيا الشرق، بيروت، ص63.
- ❖ وتُسمّى كذلك باللسانيات الجلوسيمية (Glossématique) : تأسست هذه الحلقة سنة 1939م بكوبنهاجن (الدانمارك) من طرف لويس هيلمسليف (1899- L. Hjelmslev (1965). أمّا الجلوسيمية فهو مصطلح أخذه يامسليف من كلمة (Glossa) اليونانية التي تعني اللغة. يُنظر: الطيّب دبّه: مبادئ اللسانيات البنيوية، ص115- 117.
11. أحمد يوسف: شعرية الغياب وجمالية الفراغ الباني، ص111.
- ❖ مؤسس هذا حلقة هو اللساني التشيكيف. ماتيسوس (V. Mathesius) سنة 1926م بمدينة براغ التشيكية، وذلك بمساعدة بعض طلابه. وقد كانت بداية الشهرة لهذه المدرسة حين انضم إليها سنة 1928م مثلاً ثلسانيينروس، فرّوا خلال الثورة البلشفية وأبعدوا وأشهرهم: رومانجاكسون (1893-1982 R. Jakobson) ثمّ انضمّ إليه ألسنيون فرنسيون مثل: أ. مارتيني André Martiné. يُنظر: الطيّب دبّه: مبادئ اللسانيات البنيوية، ص103.
12. أحمد يوسف: شعرية الغياب وجمالية الفراغ الباني، ص111.
13. الطيّب دبّه: مبادئ اللسانيات البنيوية، ص151.
- ❖ يمثل هذه المدرسة عدة اتجاهات أهمها: اتجاه زيبيلغ هاريس (1909-1992) (Z.Harris)، وهو عالم روسي المولد، أمركي النشأة والقلم. له كتاب يشرح فيه نظريته المسمى: "طرق في اللسانيات البنيوية". يُنظر: الطيّب دبّه: مبادئ اللسانيات البنيوية، ص152.

14. المرجع نفسه، ص152 - 153.
15. أحمد يوسف: شعرية الغياب وجمالية الفراغ الباني، ص112.
16. فاضل ثامر: اللغة الثانية، ص11.
17. تيري إيجلتون: مقدمة في نظرية الأدب، ص143.
18. المصدر نفسه، ص143.
19. عبدالمالك مرتاض: بين السّمة والسيميائية - تجليات الحداثة، جامعة وهران، الجزائر، يونيو1993م، ص13.
20. تيري إيجلتون: مقدمة في نظرية الأدب، ص144.
21. أمانة غصن: قراءات غير بريئة في التأويل والتلقي، ص19.
22. تزيف يطاننتودوروف: الشعرية، تر: شكري المبخوت ورجاء بن سلامة، دارتوبقال للنشر، الدار البيضاء - المغرب، ط02، 1990م، ص31.
23. جيارجنيت: خطاب الحكاية، بحث في المنهج، تر: محمد معتصم، عبدالجليل الأسدي، عمرحلي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط03، 2003، ص208.
24. المصدر نفسه، ص208.
25. بد العزيز حمودة: المرايا المقعرة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد272، أغسطس2001م، ص134.